

اللمح الثاني

أبو عمران الفاسي
والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس*

للمرحوم العلامة محمد الفاسي

* مقال منشور بمجلة المناهل عدد: 17 سنة 1980 م. (ص 151-157).

من المعلوم أن مدينة القيروان كان لها دور طلائعي في نشر العلم والحضارة في ربوع المغرب العربي، وأن جامعتها بمسجد عقبة بن نافع الفهري بالقيروان كانت الأولى من نوعها في بلادنا، ولقد عمّ إشعاعها كل بلاد الغرب الإسلامي إلى الأندلس، وقد ظلت المنار الذي يشيع نوره على كل هذه الأقطار إلى أن خلفتها جامعة القرويين بفاس ثم جامعة الزيتونة بتونس.

وجامعة القرويين نفسها من بركات مدينة القيروان حيث إن مُؤَسَّسَتَهَا فاطمة أم البنين الفهرية من عائلة قيروانية نزحت إلى فاس بعد بنائها، ونزلت في الضفة اليسرى لوادي فاس مع الأسر التي هاجرت من القيروان إلى فاس، وأطلق على هذه الضفة اسم عدوة القرويين وهو اختصار للقيروانيين. ومن ثم أحدثت علاقات مستديمة مع القطر التونسي وخصوصا مع جامعة القيروان أولا ثم مع جامعة الزيتونة. ولقد تجلت هذه العلاقات في الناحية العلمية بالخصوص حيث كان يقصد الطلبة من أهل المغرب والأندلس مدينة القيروان للأخذ عن علمائها خصوصا عن الإمام سحنون رضي الله عنه وعن تلامذته من بعد وعن ابن أبي زيد القيرواني في وقته، كما كان يقصدها علماء من القرويين للتدريس بها وقد استمرت هذه السُّنة طيلة قرون.

ومن المشاهير من علماء القرويين الذين قصدوا القيروان العلامة القاضي عبدالرحيم ابن العَجُوز المتوفى بفاس سنة (413هـ)، أخذ عن الإمام ابن أبي زيد القيرواني واختص به وسمع منه كتبه وأدخلها للمغرب.

ومنهم مُترجمنا الإمام أبو عمران الفاسي أشهر علماء الفقه المالكي بالمغرب الأقصى ثم بإفريقية في القرنين الرابع والخامس مع المشاركة في علوم كثيرة والرواية الواسعة والحفظ للحديث.

وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي الغفجومي نسبة إلى قبيلة بربرية زناتية بني غفجوم، وقد أنجبت هذه القبيلة علماء أكابر من بيت ابن أبي حاج هذا ومن بيوتات أخرى من أهل فاس حيث كان يسكن بالحوّمة التي لا تزال إلى الآن تحمل اسمه أي درب أبي حاج بالطالعة.

وُلد أبو عمران بمدينة فاس سنة (365هـ) ونشأ بها وبدأ دراسته على علمائها من تلامذة الإمام الشهير أبي ميمونة درّاس بن إسماعيل الذي أدخل مدونة الإمام سحنون مدينة فاس. ثم رحل أبو عمران في طلب العلم إلى عواصمه في القرن الرابع بالشرق والمغرب مثل مكة وبغداد حيث سمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس وأبي الحسن المستملي وذلك سنة (399هـ)، ودخل القيروان وقرطبة. وقد سمع بمكة الحديث على أبي ذرّ الهروي وحجّ عدة حجج وأخذ في القيروان عن الإمام القابسي.

أما بالأندلس فأكبر مشايخه مواطنه الإمام الأصيلي الذي كانت انتهت إليه إمامة الفقه بقرطبة وقد نزع إليها من مدينة أصيلة القريبة من طنجة على شاطئ المحيط الأطلسي. ومن جملة من أخذ عنهم بقرطبة أبو عثمان سعيد بن نصر وعبد الوارث ابن سفيان وأبو الفضل أحمد بن قاسم البزاز.

ومن شيوخ أبي عمران القاضي أبو بكر الباقلاني درس عليه الأصول، ورجع بعد كل هذا إلى بلده وتصدّر للإقراء بالقرويين وأقبل على دروسه جمهور الطلاب لما أظهر من تبحر في العلوم وتوفيق في الإلقاء والتفهم، كما التفّ حوله أهل فاس من الخاصة والعامة وصار مرجعهم في كافة شؤونهم وموئلهم في المدلهمات، وكان له صبر كبير على الإقراء وقوة على العمل. ولما شاهد علماء وقته هذا النجاح الذي حصل عليه أبو عمران وهذه المحبة التي تمتع بها من قبل أهل فاس غاروا منه وحسدوه وأخذوا

يناوؤونه ويسعون في إذايته سرّاً، فقرر أن يهاجر من بلده ويقصد مدينة القيروان التي كان سبق له أن دخلها ودرس بها وشاهد من لطف أهلها ما حجب له المقام بها. وقد استقبل بحفاوة كبيرة بما عهد في أهل تونس من الإنصاف والشّيم الكريمة وتعظيم العلماء، شهد بذلك وقرره وأشاد به صاحب كتاب «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» الفقيه محمد بن الحسن الحجوي في الفكر السامي (4/ 89) ترجمة الإمام عبد العزيز بن موسى بن معطي العبدوسي الفاسي الذي نرح إلى تونس أربعمئة سنة بعد أبي عمران الفاسي. قال مؤلف الفكر السامي: «قد أعجب به علماء تونس وأمرأؤها لما ورد عليهم وعطلت دروس جامع القصر وقت تدريسه وصار جميع العلماء يحضرون إلقاءه ويستفيدون منه مدة نحو عشرين سنة».

ولقد علق على هذا آخر ترجمة العبدوسي بقوله: «هذا وما وقع للعبدوسي لا يُستغرب لأن أهل القطر التونسي موصوفون بالإنصاف ولين العريكة ومحبة علماء المغرب وتعظيمهم وإكرامهم. وكم عالم من المغرب ذهب إليهم فأحسنوا القُرئ وأخذوا عنه وأعظموا جانبه» ثم ذكر ما وقع له نفسه من إقبال العلماء عليه وقد ألقى بالزيتونة دروساً في التفسير كان لها صدئ في الأوساط العلمية.

وهذا ما وقع بالضبط لأبي عمران الفاسي فإنه قضى بين ظهرانيتهم قريباً من ثلاثين سنة تبوأ أثنائها المقام الأول بين علمائهم مُبجلاً مُكرّماً.

ولقد وقع في أيامه نزاع عظيم بين العلماء وتجاوزه إلى العامة وكثر النقاش فيه حتى خرج عن طور الاعتدال إلى القتال، وكان سببه الاختلاف في مسألة هل الكفار يعرفون الله أم لا؟ فقال قائل: «لو ذهبنا إلى أبي عمران لشفاناً». فذهب إليه أهل السوق بجماعتهم وقالوا: «نحب جواباً بيّناً على قدر أفهامنا». فأطرق مدة وقال: «لا

يكلمني إلا واحد ويسمع الباكون». ثم التفت إلى واحد منهم فقال: «أرأيت لو لقيت رجلا فقلت له: هل تعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال: أعرفه، فقلت صِفْهُ لي فقال: هو رجل يبيع البقل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة، أكان يعرفني؟ قال: لا» قال بعد ذلك أبو عمران: «فلو لقيت رجلا آخر فقلت له: هل تعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال نعم. فقلت له: صِفْهُ لي. فقال هو رجل يدرس العلم ويفتي الناس ويسكن بقرب السماط أكان يعرفني؟ قال: نعم. قال: فهما مثال الكافر والمومن، فإن الكافر إذا قال: إن لمعبوده صاحبة وولدا وأنه جسم وقصد بعبادته مَنْ هذه صفته فلم يعرف الله ولم يصفه بصفته. وهو بخلاف المؤمن الذي يقول: إن لمعبوده الله الذي ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ⑥ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ⑦، فهذا قد عرف الله ووصفه بصفاته وقصد بعبادته من يستحق الربوبية سبحانه وتعالى». فقامت الجماعة وقالوا: جزاك الله خيرا من عالم فقد شفيت ما بنفوسنا ودعوا له. ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس⁽¹⁾.

ويُستفاد من هذه القصة التي أوردتها مؤلف الفكر السامي ما كان عليه الإمام أبو عمران الفاسي من الذهن الوقاد ومن معرفة نفسية برجال الشعب فقد قرّب لهم المسألة بطريقة طريفة ويظهر منها أيضا ما عُرف عنه من التوفيق في التبليغ وحسن التفهيم.

وكان رجلا جريئا يحكي عنه أنه في وقت أخذه عن أبي ذر بمكة المكرمة وافق أنه لما قصده في محل إقرائه وجده متغيبا في السراة موضع سكناه. قال ابن بشكوال في

(1) انظر القصة في ترتيب المدارك (7/ 249 - 251)، ومعالم الإيمان (3/ 162).

الصلة⁽¹⁾: «فقال لخازن كتبه: أخرج إليّ من كتبه كتاب كذا أنتسخه مادام هو غير حاضر، فإذا حضر قرأته عليه. فقال له الخازن: أما أنا فلا أجتريء على مثل هذا، ولكن هذه المفاتيح إن شئت أنت فخذها وأفعل ذلك». فأخذها الفقيه أبو عمران وفتح وأخرج ما أراد. فسمع الشيخ أبو ذرّ بالسراة بالأمر فركب وطرق إلى مكة وأخذ كتبه وأقسم ألا يحدثه. فقد أخبرت أن أبا عمران كان بعد ذلك إذا حدث عن أبي ذرّ شيئاً كان حدثه قبل أن يُورّي عن اسمه ويقول: أخبرني أبو عيسى. وذلك أن أبا ذرّ كانت العرب تكنيه بأبي عيسى لأنه كان له ابن يسمى عيسى. والعرب إنما تكني الرجل باسم ابنه».

وهذه القصة تدل كذلك على شغفه بجمع الحديث وارتكابه مثل هذه الجرأة على شيخه مع أن مقام أبي ذرّ الهروي وجلاله كان من شأنهما أن يصدّاه عن الإقدام على مثل هذا التصرف.

ويظهر أن أبا عمران الفاسي كان صعب المراس خصوصاً مع أقرانه من العلماء، وكان بالقيروان في وقته عالم كبير من طبقة، وهو أبو بكر بن عبد الرحمن وكانت العامة تعظمهما. قاله في المدارك: «وقد وقعت نفرة بينهما، فطمع صاحب إفريقية أن يتوصل بذلك إلى تقليل نفوذهما على العامة بشهادة أحدهما على الآخر فتقوم الحجة عليهما معاً، إذ كانت العامة طوّعهما، فلما اختبرهما وجدد بينهما أمتن مما يظن وخاب ظنه⁽²⁾». وقد قال الضبي في "البغية في ترجمة أبي العباس أحمد بن رشيق: «وله رسائل متداولة منها الرسالة إلى أبي عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي وأبي بكر ابن عبد الرحمن فقيهي القيروان في الإصلاح بينهما»⁽³⁾.

(1) طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966 (2/ 611).

(2) ترتيب المدارك (7/ 239 - 240).

(3) جذوة المقتبس (1/ 195-196) ترجمة رقم: (208).

أما عن علمه فقد أجمع مترجموه على الثناء عليه وقد كان من أحفظ الناس للحديث وللمذهب المالكي، وكان متخصصاً في القراءات وقد أقرأ القرآن الكريم ببغداد، وكان يقرأ بالسبع وله معرفة واسعة بتاريخ الرجال وجرحهم وتعديلهم، وكانت دروسه بالقيروان تضم عدداً كبيراً من الطلبة من أهل تونس ويقصده الطلاب من كافة أقطار المغرب العربي بما في ذلك بلاد الأندلس. ومن قصد الحج من أفاضل المغرب يمر بالقيروان لزيارة عالمها الفذّ أبي عمران الفاسي. فكان ممن قصده في إحدى السنين الأمير يحيى بن عمر اللمتوني الكدالي مع جماعة من أهل قبيلته، فطلب منه أن يرسل معه أحد تلاميذه ليُفقه قومه في الدين لأنهم كانوا لازالوا في جهالتهم يعمهون. فلم يرد أحد من تلاميذ الشيخ أن يذهب إلى صحاري لتونة لصعوبة تلك البلاد وجفاء طباع أهلها وبعدهم عن الحضارة الإسلامية، فأشار أبو عمران على الأمير يحيى بن عمر بن إبراهيم أن يقصد الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي من أهل سوس الأقصى بوادي نفيس وقد كان درس عليه بالقرويين وأعطاه هذه الرسالة التي حافظ لنا عليها المؤرخون ونصها: «سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد، إذا وصلتك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن عمر بن إبراهيم الكدالي فابعث معه إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في دينهم، وله ولك في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً والسلام»⁽¹⁾. وكان الشخص الذي وقع عليه اختيار الفقيه وجاج بن زلوا هو عبد الله بن ياسين مهدي المرابطين على حد تعبير أحد المؤرخين.

(1) انظر الأنيس المطرب لابن أبي زرع (ص 154-156)، والخلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (ص 19-24)، والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري (2/ 5-17).

وهكذا فإن الإمام أبا عمران الفاسي وجامعتي القرويين والقيروان لهم الفضل في تأسيس الدولة المرابطية التي قيَّضها الله لإرجاع هبة الإسلام إلى الأندلس بعد أن كاد يُقْضَى عليه واستمر إلى أربعمئة سنة بعد ذلك.

وقد كتب أبو عمران تأليف في الفنون التي كان يتقنها خصوصا الحديث والفقه ذكرها مترجموه من ذلك كتاب «التعليق على المدونة»، قال ابن فرحون في الديباج: «كتاب جليل لم يكمل»⁽¹⁾ وقال القاضي عياض في المدارك: «جمع من عوالي حديثه مئة ورقة»⁽²⁾ وذكروا له فهرسة⁽³⁾، والفهرسة في اصطلاح المغاربة الكتاب الذي يذكر فيه مؤلفه مشايخه وأخذه عنهم مع سند رواياتهم وهي تقابل الشيت عند المشاركة والبرنامج عند الأندلسيين، ولم يصلنا شيء من تأليف إلا أن بروكلمان نسب له في ملحق تاريخه للأدب العربية (ملحق واحد ص: 661) كتابا سماه «النظائر»، وقال: منه مخطوط في خزانة الجزائر تحت رقم (2ر1060).

وقد اتفق المؤرخون على أن أبا عمران الفاسي توفي سنة (430هـ) عن خمس وستين سنة فتكون ولادته كما قدمنا سنة (365هـ) إلا أن ابن بشكوال ذكر في صلته بعد تأكيده لهذا التاريخ أن أبا عمر بن عبد البر قال: «ولدتُ مع أبي عمران في عام واحد سنة ثمان وستين وثلاثمائة». والمُعَوَّل على ما أجمع عليه كل مَنْ ترجم له.

هذا ويتضح من خلال هذه الترجمة ما كان من الاتصال العلمي الوثيق بين المغرب وتونس من أقدم العصور، وكيف أن هذا الاتصال رغم صعوبة الأسفار كان متواصلا، وكان التعارف بين العلماء وأخذ بعضهم عن بعض من الظروف العادية

(1) الديباج المذهب (2/ 318).

(2) ترتيب المدارك (7/ 246).

(3) انظر الغنية (ص 228)، فهرس الفهارس (1/ 159).

وانتقال المؤلفات ما بين عواصم العلم أمراً ميسوراً، مما جعل الحضارة الإسلامية تطبع البلاد الإسلامية بطابعها الخاص، والاتجاهات الفكرية متحدة مما لا يحصل اليوم إلا قليلاً وتنظم المؤتمرات، وتعد المعاهد لتحقيقه. وقد كان للحج دور مهم في ربط البلاد الإسلامية ببعضها ببعض، كما يظهر ذلك أيضاً في ترجمة أبي عمران الفاسي وقد بدأ حياته العلمية بالتردد على العواصم العلمية بالشرق عند توجهه للحج ولما استقر بالقيروان كان يُعَرَّج عليه كثير من طلاب العلم في طريقهم إلى الحج كما قدمنا، وكان ذلك مما يمتن العلاقات العلمية بين المغرب وتونس.

(1) ورحم الله أبا عمران الفاسي رحمة واسعة .

○○○○○

(1) ورحم الله العلامة محمداً الفاسي رحمة واسعة.

فهرس المصادر والمراجع

- ❑ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق الأستاذين جعفر الناصري وأحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب/ 1954.
- ❑ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لعلي بن أبي زرع الفاسي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، نشر المطبعة الملكية - الرباط ط2 / 1420 هـ / 1999 م.
- ❑ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت544هـ)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ط / 1، 1384-1403 هـ.
- ❑ جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، لأبي محمد ابن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي الحميدي الأندلسي، تحقيق إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ط2 / 1410 هـ / 1989 م.
- ❑ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، نشر دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1 / 1399 هـ - 1979 م.
- ❑ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لإبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون، تحقيق علي عمر، نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ط1 / 1423 هـ / 2002 م.

- ❑ الصلة، لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966 م.
- ❑ الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرار، نشر دار الغرب الإسلامي بيروت، ط/1، 1402 هـ.
- ❑ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للعلامة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي.
- ❑ فهرس الفهارس والأثبتات ومعجم المعاجم والشيخات والمسلسلات، لمحمد عبد الحلي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: د. إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي بيروت، ط/2، 1982 م.
- ❑ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ، نشر المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر.